



رُوحَانِيَّاتُ الصِّيَامِ

مَنْحَتِ الشُّعْرَاءِ وَالْأَدْبَاءِ مَسَاحَةً أَرْحَبَ لِلِإِبْدَاعِ

كَانَ لظُهُورِ الْإِسْلَامِ تَأْثِيرٌ بَالِغٌ عَلَى الثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِشَكْلِ عَامٍّ، وَعَلَى الْفُنُونِ وَالْآدَابِ بِشَكْلِ خَاصٍّ؛ إِذْ تَأَثَّرَتْ بِالْقِيَمِ وَالْمَفَاهِيمِ وَالْمُصْطَلِحَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ، حَتَّى إِنَّ مَوَاسِمَ الْعِبَادَاتِ أَصْبَحَتْ أَيْضًا مَوَاسِمَ أَدَبِيَّةٍ يَتَنَافَسُ الْأَدْبَاءُ وَالشُّعْرَاءُ فِي وَصْفِهَا، وَتَوْصِيفِ الْحَالَةِ الرُّوحِيَّةِ الَّتِي يَعِيشُهَا الْمُسْلِمُونَ فِيهَا. وَلَا شَكَّ أَنَّ الصِّيَامَ مِنْ أَعْظَمِ الْمَوَاسِمِ الَّتِي تَنَاوَلَهَا الشُّعْرَاءُ فِي أَشْعَارِهِمْ، خَاصَّةً أَنَّ الصِّيَامَ كَغَيْرِهِ مِنْ أَسْمَاءِ الْعِبَادَاتِ فِي الْإِسْلَامِ أَعْطَى الْكَلِمَةَ ذَاتَهَا مَعْنَى فَوْقَ مَا يَحْمِلُهُ مَعْنَاهَا الْمَعْتَادُ.

فَإِذَا كَانَ الصِّيَامُ فِي اللُّغَةِ يُعْرَفُ بِأَنَّهُ «الْإِمْسَاكُ»، فَإِنَّ التَّوْصِيفَ الشَّرْعِيَّ لِكَلِمَةِ صِيَامٍ ذَهَبَ إِلَى مَا هُوَ أْبَعَدُ مِنْ ذَلِكَ بِكَثِيرٍ؛ فَقَدْ أَصْبَحَ مَفْهُومُهُ بِالْمَعْنَى الْإِضْطِلَاحِيَّةِ هُوَ الْإِمْسَاكُ عَنْ شَهْوَيِ الْبَطْنِ وَالْفَرْجِ يَوْمًا كَامِلًا مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ تَعْبُدًا لِلَّهِ، إِلَى أَنْ غَلَبَ الْمَفْهُومُ الْإِضْطِلَاحِيُّ عَلَى الْمَفْهُومِ اللَّغَوِيِّ، وَأَصْبَحَتْ كَلِمَةُ الصِّيَامِ إِذَا أُطْلِقَتْ عَلَى عَوَاهِنِهَا أُرِيدَ بِهَا الْمَعْنَى الْإِضْطِلَاحِيَّةُ وَلَيْسَ مُجَرَّدَ الْمَعْنَى اللَّغَوِيِّ.

وَبِهِمْ وَمِنْهُمْ، تَصْوِيرًا حَرَكَيًا يَدْفَعُ إِلَى رُؤْيَةِ الْمُنْظَرِ الْحَيِّ، بِالْفَظِ لَا يَكَادُ يَظْهَرُ لِلصَّنْعَةِ فِيهَا يَدٌ قَرِيبَةٌ وَلَا بَعِيدَةٌ، بَلِ السَّجِيَّةُ سَيِّدَةُ الْمَوْقِفِ.

وَلَمْ يَكُنِ الصِّيَامُ بِكُلِّ مَا يَتَّصِفُ بِهِ مِنْ مَعَانٍ دِينِيَّةٍ وَرُوحِيَّةٍ بِالْمُنَاسَبَةِ الَّتِي يَغْفُلُهَا الشُّعْرَاءُ وَالْأَدْبَاءُ عَلَى مَرِّ الْعُضُورِ، وَلَقَدْ حَفَلَتْ كُتُبُ الْأَدَبِ، وَدَوَّابِئُ الشُّعْرَاءِ، بِذِكْرِ هَذِهِ الْفَرِيضَةِ الْغَالِيَّةِ، مَا بَيْنَ تَرْحِيبِ بِمَقْدَمِ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَتَوَدِيعِ لَهُ، وَإِظْهَارِ أَهْمِيَّةِ الصَّوْمِ فِي حَيَاةِ النَّاسِ، وَعَادَاتِهِمْ فِي رَمَضَانَ فِي مُخْتَلَفِ الْبُلْدَانِ، وَاعْتِبَارِهِ شَهْرًا لِلْهَدَايَةِ، وَالنَّصْرِ، وَالْجُودِ، وَالْبِرِّ، وَالصَّلَاةِ.

وَمَنْ يَتَصَفَّحُ كُتُبَ الْأَدَبِ الْإِسْلَامِيِّ مِنْذُ عَصْرِ صَدْرِ الْإِسْلَامِ فَسَيَلْحَظُ مَدَى الْحُبِّ وَالتَّقْدِيرِ الَّذِي أَوْلَاهُ الْأَدْبَاءُ وَالشُّعْرَاءُ لِهَذَا الشَّهْرِ؛ فَهِيَ هِيَ أَمِيرُ الشُّعْرَاءِ أَحْمَدُ شَوْقِي

يُصَوِّرُ لَنَا الصَّوْمَ تَصْوِيرًا أَدَبِيًّا؛ فَيَقُولُ فِي كِتَابِهِ «أَسْوَأُ الذَّهَبِ: «الصَّوْمُ حِرْمَانٌ مَشْرُوعٌ، وَتَأْدِيبٌ بِالْجُوعِ، وَخُشُوعٌ لِلَّهِ وَخُضُوعٌ، لِكُلِّ فَرِيضَةٍ حَكْمَةٍ، وَهَذَا الْحُكْمُ ظَاهِرُهُ الْعَذَابُ وَبَاطِنُهُ الرَّحْمَةُ. يَسْتَثِيرُ الشَّفَقَةَ، وَيُحْضِرُ عَلَى الصَّدَقَةِ، يَكْسِرُ الْكِبْرَ، وَيُعَلِّمُ الصَّبْرَ، وَيَسُنُّ خِلَالَ الْبِرِّ، حَتَّى إِذَا جَاعَ مَنْ أَلْفِ الشَّبَعِ، وَحُرِمَ الْمُتْرَفِ، أَسْبَابَ الْمُتَمَعِ، عَرَفَ الْحِرْمَانَ كَيْفَ يَقَعُ، وَكَيْفَ أَلَمُهُ إِذَا لَذَعَ».

الشُّعْرَاءُ وَالْأَدْبَاءُ غَاصُوا فِي أَعْمَاقِ الْمُسْلِمِينَ لِاسْتِجْلَاءِ أَثَرِ الصِّيَامِ عَلَى مُجْتَمَعَاتِهِمْ

وَقَدْ تَقَنَّ الشُّعْرَاءُ فِي وَصْفِ الْهَيْلَالِ وَالتَّرْحِيبِ بِهِ، بَلْ وَعَدُّهُ أَمَارَةً خَيْرٍ، وَبَشَارَةً يُؤْمَنُ وَبَرَكَتُهُ، فَعِنْدَمَا يَهْلُ هَيْلَالُ شَهْرِ رَمَضَانَ الْكَرِيمِ، تُشْرِقُ الدُّنْيَا بِهَجَجَةٍ بِقُدُومِهِ، فَتَصْفُو النَّفُوسُ، وَتَنْتَشِي بِالرَّحْمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي تَعْمُ الْكُونَ، وَيَتَحَقَّقُ الرِّضَا النَّفْسِيُّ؛ لِاسْتِجَابَةِ الْقُلُوبِ لِأَمْرِ بَارئِهَا - عَزَّ وَجَلَّ.